ثم.. إن تصوره لقتود الركائب (وهي رحالها) أنها داره.. تصور يعبر عن أن الشاعر صاحب أسفار، وإحلال القتود محل الدار يقدم صورة تثير الاندهاش، لغرابتها، ثم الإعجاب بهذا الرجل جواب الآفاق لا يقر له قرار.

وفي الخامس يقول:

ولا أنس إلا أن أضاحك ساعة
ثغور الأماني في وجوه المطالب

إن مضاحكة ثغور الأماني.. صورة رائعة، لأن المضاحكة تتشاكل، في العادة، مع الثغور، لأن الضحك أداته الثغر، ولأنك، إذا ضحكت لأحد، تنتظر أن يضحك لك، ومحل الضحك هو الثغر، في كلتا الحالتين.

ولكن - ما أقبح (وجوه المطالب!) لأن وجوه المطالب كالحة قاسية، لا تنبض فيها حياة. لكن الذي جر الشاعر إلى ذلك إنما هو تداعي الصور، فالثغور.. محلها الوجوه، فاستدعت صورة الثغور.. صورة الوجوه. الخلاصة أن الجزء الأول من البيت كان جيدا، لفظا ومعنى، ولكن القسم الأخير كان كالحا، كوجوه المطالب.

ويقول في البيت السادس:

بليل، إذا ما قلت: قد باد وانقضى
تكشف عن وعد من الظن كاذب

هذا.. بيت رائع، لأنه ينسجم مع نفسية الشاعر التي تعيش في ليل من الفزع، مستمر. فالشاعر - كما يستبطئ تدويم الليل عليه، ويتمنى انجيابه، لأن شعوره اللاواعي يربط بين انجياب الليل، وما عساه ينتهي إليه أمره - هو - من انجياب الفزع الجاثم على صدره، خوفا من الموت.

وقد عبر الشاعر - بالمقابل - عن يأسه من انجياب الليل - الذي يمثل - معادلا خارجيا - لما يتعذب به من جثوم الفزع من الموت على صدره، وتذويب أعماقه.

الشاعر - إذن - يتمنى.. بشعوره الواعي أن ينجاب الليل، لأن شعوره اللاواعي يتمنى أن ينجاب الفزع من الموت الذي يفتت أعماق الشاعر. ولكن جثوم الفزع على صدره يجعل شعوره الواعي يحس بطول الليل، وعدم انجيابه. وبهذا.. فهذا البيت يشبه بيتي النابغة الذبياني من غير أن يكون تقليدا لهما، أو - تناصا- معهما - وهما:

كليني لهمّ- يا أميمة- ناصب
وليل أقاسيه بطيء الكواكب
تطاول، حتى قلت: ليس بمنقض
وليس الذي يرعى النجوم بآيب

خاتمة:

هذا هو ابن خفاجة.. شاعر مجيد، وخاصة في قصيدتيه - البائية والرائية - ولكنه ينزل رتبة عن أمثال أبي تمام والبحتري. ولعل لفزعه من الموت غير سبب واحد.

أما نقادنا الرواد فقد أدوا ما عليهم، فيجب علينا أن نخرج من عباءتهم، فنؤدي ما علينا، وهو مختلف، هو تحليل وتعليل وتدليل، لا أحكام عامة، وتعريف مجمل، وانسياق مع المألوف دون تدبر وتبين، ودون شك وقبول، واطراح. والله تعالى أعلم - وهو بنا أرأف وأرحم ■

رسالة إلى المبدعين

شعر: د. ثريا العسلي - مصر

يا أيها الأدباء يا أهل البلاغة والبيان
أنتم حماة لساننا العربي، أفصحُ باللسان!
أنشأتم الأدب الرفيع فشع نورا حيث كان
أدب إلى الإسلام منتسب، عروبته يشير لها البنان
قامت دعائمه على لغة بها سحر البيان
لغة بها نزل الكتاب فصانها في كل آن
تزهو بمعجمها الرشيق، يضم مؤتلق المعان
فتآزروا حتى تصونوها، وأجدرُ أن تصان!